

ألا تحبون أن يغفر الله لكم

إعداد

عبد الله بن محمد العسكر

مصدر هذه المادة :

الكتيبة الإلكترونية
www.ktibat.com



دار الوطى للنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(١)

الحمد لله رب العالمين ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى أصحابه ومن استنَّ بسنته وسار على نهجه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة والأخوات:

فإن من المقرر عند كل مسلم ومسلمة أن الله تبارك وتعالى لم يخلقه عبثاً، تعالى الله عن ذلك؛ إنما هي غاية واحدة ومقصد أوحده من أجله خلق العباد، ألا وهو تحقيق العبودية لله — جل جلاله — فهو السيد المولى، فمن حقه أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

ومنذ أن خلق الله — تبارك وتعالى — أبانا آدم وهو قد أخذ عليه العهد قبل أن يخلقنا بأن نعبد ونوحده ولا نشرك به شيئاً كما قال — جل جلاله —: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾^(٢).

(١) أصل هذه الرسالة محاضرة ألقى في جامع أبي بكر الصديق بمدينة الخرج بتاريخ (١٧/٢/١٤٢٣هـ) وقد قام الأخوان: عمر بن محمد الرويس، وعمر طمبل بتفريغها والعناية بتخريج أحاديثها وعزو ما فيها من نصوص وإعدادها للطبع. جزاهما الله خيراً.

(٢) الأعراف: ١٧٢.

ومع هذا الميثاق إلا إنه من كرمه — جل جلاله — ومن عظم فضله وامتنانه أن أرسل الرسل مبشرين ومنذرين زيادة في الحجّة، وبلاغاً على العباد، وبشارة لمن أراد موعود الله والدار الآخرة.

وإن المتأمل في واقع أكثر الخلق وعامة الناس يلحظ ويجلاء أن الطائعين لله نزر يسير وعدد قليل، مقابل الكم الهائل من البشر الذين أغوتهم نفوسهم فأزاعتهم وأضلتهم عن سواء الصراط!!

أيها الإخوة والأخوات: إنه لما يدمي القلب ويدمع العين ما نراه من الاجترار على حرّات الله من كثير من المسلمين ومع الأسف الشديد.

أجل!! لقد تساهل الكثيرون في المعصية، وهانت على نفوسهم الذنوب، فأصبح أولئك يعاقرون ما يسخط الله ويغضبه وكأن شيئاً لم يكن!! فيألى الله المشتكى وهو المستعان.

ومع تقدم إنسان هذا العصر مادياً وحضارياً؛ تنوعت وسائل الإغواء والانحراف، واجتالت الشياطين أكثر الناس فأغرقتهم في أوحال المعصية، وأردتهم في حفر الخطيئة. وزاد البعد عن الله الواحد الأحد الذي لم تنقطع نعمه، ولم تنته فضائله؛ بل هي متتابعة تترى على عباده. فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!؟

فيا من أطلق لنفسه العنان، ولم يرع الله — تبارك وتعالى — حقاً: إلى متى وأنت تقتات المعصية وتألّفها؟!؟

ألم يحن بعد وقت الرجوع إلى الله -تبارك وتعالى؟!؟

أما آن لك أن تنطرح بين يدي مولاك؟!
أما آن لك أن تفيق من سكرة الذنب؟!
أيها السائر في طريق الهوى واللذة العابرة: رويداً رويداً.
أتعرف الذي تعصيه؟!
أتعرف من تبارزه بذنبك؟!
إنه الله الجبار الذي بيده ملكوت السماوات والأرض!!
أيها المسرف على نفسه: كفاك كفاك...

آن لك أن تضع عصا الترحال، وأن تذرّف الدموع الغزار،
دموع الندم على ما فات وسلف من الأزمان الماضية... على ما
سلف من ذنوبك وخطاياك...

نعم، آن لك أن تعترف بذنبك لربك وتقول بلسان النادم
الأواب:

دعني أنوح على نفسي وأندبها
وأقطع الدهر بالتذكّار والحزن
دعني أسح دموعاً لا انقطاع لها
فهل عسى عبرة منها تخلصني
دع عنك عذلي يا من كنت تعذلني
لو كنت تعلم ما بي كنت تعذرني
أنا الذي أغلق الأبواب مجتهداً
على المعاصي وعين الله تنظرني

يا ذلة كتبت في غفلة ذهبت
يا حسرة بقيت في القلب تحرقني
تمر ساعات أيامي بلا ندم
ولا بكاء ولا خوف ولا حزن
ما أعلم الله عني حين أمهلي
وقد تماديت في ذنبي ويسترتني

إي والله يا عباد الله، ما أحلم الله عنا!!

كم عصيانه ويسترنا؟! كم خالفنا أمره فما عاجلنا بعذابه؟!
أظهر للناس الجميل، وأخفى عنهم القبيح من سرائرنا. فاللهم
رحمة من عندك تكفر بها ما سلف من ذنوبنا وخطايانا.

أيها الإخوة والأخوات:

إن هذه الكلمات دعوة لنا جميعا بلا استثناء، إلى الباب
المفتوح، إلى النهر العذب، إلى الروضة الغناء التي لا يذبل زهرها،
ولا تذوى رياحينها وورودها، إلى التوبة النصوح، إلى التوبة من
التقصير في الطاعة، ومن الوقوع في المعصية، إلى التوبة إلى الله
الكريم الجواد الرؤوف الرحيم...

إن شأن التوبة — يا عباد الله — شأن عظيم. إنها علامة صدق
الإيمان، وقرب العبد من الواحد الديان.

وليست التوبة — كما يظن البعض — خاصة بأهل المعاصي ممن
ظهر فجورهم وبان فسقهم!!

ليست التوبة خاصة بهؤلاء فحسب؛ بل هي عامة لنا جميعاً،
كما قال الله — جل جلاله — في كتابه الكريم: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ
جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

وجاء في صحيح مسلم من حديث الأغر المزني — رضي الله
عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله
فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة!!»^(٢).

هذا نبي الله — عليه الصلاة والسلام — يتوب في اليوم ويستغفر
مائة مرة!! فكيف بنا نحن المقصرين المذنبين!!؟

سأقف وإياكم — أيها الأحبة في الله — بعض الوقفات حول
هذا الموضوع المهم الذي كلنا بحاجة إليه لعلنا أن نحيي بهذه
الوقفات القلوب، ونقربها من الله علام الغيوب.

وعسى أن يكون لهذه الوقفات أثرٌ في حياتنا وسلوكنا،
وإصلاح بواطننا وظواهرنا.

ومن يدري: فر بما أن كلمة من هذه الكلمات تقع في قلب
مؤمن أو مؤمنة فتحدث فيه هزة ويقظة تكون بها سعادته في الدنيا،
وفوزه الفوز الكبير في جنات النعيم، والله المستعان وعليه التكلان.

(١) النور: ٣١.

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه،
حديث رقم (٦٧٩٩).

الوقفه الأولى

ثمار التوبة

إن حصر ثمار التوبة أمر شاق يحتاج إلى وقت طويل ولا شك. ولكن حسبنا أن نذكر بعضها، وكفى بما سنذكره دافعا ومعينا لمن أراد الخير والفلاح.

أول هذه الثمار:

تكفير جميع السيئات، بل وقلبها إلى حسنات!!

أرأيت — أخي المسلم — أكرم من ربك — عز وجل — !!؟
إنه إن أتيت تائباً منيباً فإنه يكفر ما سلف من سيئاتك، وأعظم من ذلك أنه — جل جلاله — يقلب تلك السيئات إلى حسنات!!

يقول جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١).

فيا أيها المذنبون — وكلنا كذلك —: ألا تحبون أن يغفر الله لكم!!؟

ألا تحبون أن تغسلوا عنكم أدران الذنوب بماء التوبة الطهور!!؟

(١) الفرقان: ٦٨-٧٠.

جاء في صحيح مسلم من حديث أبي ذر الغفاري — رضي الله عنه — أن نبي الله — ﷺ — قال: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها: رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها. فعرض عليه صغار ذنوبه. فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا وكذا وكذا، فيقول: نعم لا يستطيع أن ينكر» يذكر بذنوبه فهل يستطيع أن ينكر منها شيئاً في ذلك المقام؟! كلا إنه ليس بين يدي بشر من البشر، بل هو بين يدي رب البشر الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء «فيقول العبد: نعم، لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه تعرض عليه» إذاً الذي عرض عليه ما هو إلا صغار الذنوب وأما الكبائر فقد أخفيت عنه!! «فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة!!» عند ذلك يطمع العبد — وهذه طبيعة الإنسان — فيتذكر ذنوبه الكبار «فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا!!» قال أبو ذر: «فلقد رأيت رسول الله — ﷺ — ضحك حتى بدت نواجذه»^(١).

وأورد المنذري في الترغيب والترهيب والطبراني في المعجم بإسناد حسن عن أبي طویل — رضي الله عنه — أنه أتى إلى الرسول — عليه الصلاة والسلام — فقال: يا رسول الله، رأيت من عمل الذنوب كلها، ولم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها (يعني لا

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم (٤٦٦).

صغيرة ولا كبيرة إلا أتاها)، فهل لذلك من توبة؟ فقال — عليه الصلاة والسلام — بشارة لكل تائب وتائبة، قال: «تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله خيرات كلهن!!» فقال هذا الصحابي: يا رسول الله وغدراي وفجراي؟ قال: «نعم» فقال: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى عن القوم!!^(١).

وإن شئتم — إخواني وأخواتي — أن تروا كرم الله وفيض عطائه على التائبين فدعونا نقف جميعاً مع قصة لصاحبي وصاحبية وقعا في معصية ثم بادرا بالتوبة منها. وهم بشر كغيرهم يخطئون ويصيبون؛ لكن الفرق بينهم وبين كثير من الناس أن أولئك القوم سرعان ما يبادرون إلى التوبة، سرعان ما يعودون إلى الله -جل جلاله.

وذاك دأب الصالحين. يقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢).

إنها قصة الصحابي الجليل معز الأسلمي، والصحابية الجليلة الغامدية — رضي الله تعالى عنهما وأرضاها...

إنها بحق قصة عجيبة!!

فيها من العبر ما يهز الوجدان، ويرفع منسوب الإيمان في قلب كل مؤمن.

(١) المعجم الكبير حديث رقم (٧٢٣٥).

(٢) الأعراف ٢٠١.

جاء في صحيح مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: جاء معاذ بن مالك — رضي الله عنه — إلى رسول الله — ﷺ — فقال: يا رسول الله، طهرني. قال: «ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه» فرجع غير بعيد، ثم عاد مرة أخرى، فقال: يا رسول الله، طهرني!! فقال — عليه الصلاة والسلام —: «ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه» حتى إذا كانت الرابعة قال رسول الله ﷺ: «فيم أطهرك؟!» قال: من الزنا يا رسول الله!! فسأل النبي ﷺ بعض من حوله: «أبه جنون؟!» فقال بعض قومه: «والله يا رسول الله ما علمنا به جنونا» فقال: «أشرب الخمر؟!» فقام أحد الناس إلى هذا الصحابي — رضي الله عنه — فاستنكته (يعني شممه) فلم يجد منه ريح الخمر!!

لقد كان بإمكان هذا الصحابي عندما قال له النبي — ﷺ —: «ارجع» في أول مرة أن يذهب ويقول: قد أخبرت رسول الله وبرئت ذمتي. ولكنه — رضي الله عنه — كان في قلبه الإيمان والخوف من سطوة الله وعذابه!!

ثم ماذا؟ لقد جاء يطلب التطهير من ذنبه وهو يعلم أنه القتل، وأي قتل!!؟

إنه رمي بالحجارة حتى الموت وأمام أعين الناس!! فالأمر صعب وشاق، ومع هذا كان — رضي الله عنه — يلح في طلب ذلك!! لم كل هذا؟ لأجل أن ينجو من عذاب الله!!

إنه يعلم أن العقوبة في الدنيا وإن كانت قاسية وأليمة، لكن

ليست بأقسى ولا أخزى من غمسة واحدة في نار جهنم!! فكان من شأنه أن يتحمل عذاب الدنيا لأجل أن ينجو من عذاب الله غداً!!

فلما جاء هذا الصحابي في المرة الرابعة وكرر الطلب ما كان للنبي ﷺ — بدُّ من أن يأمر به فيرجم — رضي الله عنه وأرضاه. نعم لقد رُجم هذا الصحابي، فكان الناس فيه فرقتين: قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته. وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز.

فلبثوا يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ — وهم جلوس فسلم عليهم، ثم جلس وقال: «استغفروا لأخيكم ماعز بن مالك» قالوا: غفر الله لماعز بن مالك، فقال النبي ﷺ —: «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سعتهم»^(١).

وجاء في رواية لأبي داود: إن النبي ﷺ — حينما أمر بـرجم ماعز — رضي الله عنه — سمع رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجم رجم الكلب!!

فسكت رسول الله ﷺ — وسار هو ومن معه من الصحابة، ومعهم هذا الرجلان حتى مرَّ بجيفة حمار شائل برجله، فقال — عليه الصلاة والسلام — حين وقف: «أين فلان وفلان؟» فقالوا:

(١) رواه مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، حديث رقم (٤٤٠٦).

نحن ذان يا رسول الله، فقال: «انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار!! فقالا: غفر الله لك يا رسول الله، ومن يأكل من هذا الحمار؟! فقال — عليه الصلاة والسلام —: «ما نلتما من عرض أخيكما أنفاً أشد من أكل منه!! والذي نفسي بيده إني لأراه الآن ينغمس في أنهار الجنة!!»^(١).

الله أكبر، إنها كرامة الله، إنه فضل الله... وهل وجدتم أعظم من أن جاد بنفسه في سبيل الله!!

أما صاحبه الغامدية فقصتها أعجب وأعجب!!

لقد علمت بالطريقة التي مات بها ماعز — رضي الله عنه — فلم تستخف عن الناس، لم تهرب منهم؛ بل لقد كان شأنها عجيباً من العجب!!

جاء في صحيح مسلم في قصة هذه المرأة: إنها جاءت إلى النبي ﷺ — فقالت: يا رسول الله إني زنت فطهرني!! فردها رسول الله ﷺ — وأشاع عنها يمينا، فجاءته من عن يمينه، فقالت له ذلك!! فأشاع عنها شمالاً، فجاءته من ناحية الشمال!! فقال لها ذلك، يصرف النبي ﷺ — بصره عن هذه المرأة لعلها أن تذهب، لعلها أن تستر نفسها!! لكنها — رضي الله عنها — قالت له — ﷺ —: لعلك تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى من الزنا!!

فقال — عليه الصلاة والسلام —: «إمّا لا، فاذهبي حتى

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك، حديث رقم (٤٤١٩)، وصحح إسناده الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/٢١٦).

تلدي»!!

فذهبت، وجلست تسعة أشهر حتى ولدت رضيعها. فعادت بعد تسعة أشهر، وجاءت بالصبي في خرقة!!

هي التي جاءت بنفسها ولم يطلبها النبي ﷺ — ولم يأخذ عليها عهداً. فقالت: ها قد ولدته يا رسول الله فطهرني!!

فقال النبي ﷺ —: «اذهي حتى ترضعيه، ثم تطفميه»!!

فذهبت لترضعه. أهو يوم أم يومان؟! أم شهر أم شهران؟! كلا، إنها سنتان كاملتان!!

ذهبت وجلست سنتين وقبلها تسعة أشهر ونار المعصية تشوي فؤادها وتقض مضجعها. فكم أهرقت لها من دمة؟! وكم أسبلت لها من عبرة؟! تبيت الليالي ذوات العدد في حالك الظلمات تناجي ربها، وتشكو بثها وحزنها إلى الذي يراها، ويبصر ضعفها وهي تعفر جبينها ساجدة لربها، مقرّة بخطيئتها، نادمة على فعلها!!

فله درُّها ما أعظم خشيتها!! ولله درها ما أجلّ إعظامها لمولاها!!

لقد قضت تلك الصحابية الجليلة أيامها التي حدّدها رسول الله ﷺ — حتى تطفم ولدها، وكلها شوق إلى ذلك اليوم، وذلك الميعاد. وأي ميعاد؟! أهو لقاء حبيب؟! أهي ليلة عرس؟! أهو فوز بشهادة أو منصب؟!!

كلا والله بل هو موعد مع الموت...

أجل إنه الموت، وأي موت؟! إنه الرجم بالحجارة على مشهد
من الناس!!

ألا تعجبون — إخواني وأخواتي — من هذا الإيمان الذي يزلزل
الجبال الراسيات؟!!

أتت إلى النبي ﷺ — بعد أن فطمت صبيها، جاءت به، وفي
يده كسرة من خبز. تقول: يا نبي الله ها قد فطمته، وقد أكل
الطعام، واستغنى عني!!

فدفع النبي ﷺ — بالصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها
فحُفِرَ إلى صدرها، ثم أمر الناس فرجموها حتى زهقت روحها
الطاهرة... وارتفعت إلى مولاها راضية مرضية...

هانت عليها نفسها في ذات الله، واستعدت العذاب طمعاً في
مغفرة رب الأرباب!!

صعدت روحها إلى الله حيث النعيم المقيم، ورحمة الكريم
الرحيم.

لقيت ربها نقية من الذنوب، سالمة من الآثام، فرحة برضا
خالقها.

وكان من بين من رجم تلك المرأة من الصحابة، خالد بن
الوليد — رضي الله عنه — فرجمها بحصاة في رأسها فتنصَّح الدم
على وجهه، فغضب وسبها — غفر الله له —، فسمع رسول الله —
ﷺ — ما قاله خالد، فقال: «مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده

لقد تابت توبةً لو تابها صاحب مكس^(١) لغفر الله له^(٢).

ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت — رضي الله عنها وأرضاها —
وألحقنا بها في جنات وأنهار في مقعد صدق عند مليك مقتدر.
فأبشروا — معاشر التائبين والتائبات — أبشروا برحمة الله
وتكفيره لخطاياكم وذنوبكم ولو بلغت عنان السماء.

الثمرة الثانية من ثمار التوبة

تغيير الحياة من جحيم إلى نعيم

إن أسعد الناس هم التائبون والتائبات؛ لأنهم قوم رقت قلوبهم،
وخشعت لمولاها، فأورثها الله حلاوة وجدوها في نفوسهم.

وهذه اللذة لا تكون إلا لمن أظهروا فقرهم لله وانطرحوا بين
يديه خاشعين باكين وأنابوا إليه. لقد ذاقوا بذلك حلاوة رزقهم الله
إياها لا تحصل لأي أحد غلا لمن كان على مثل حالهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله —: «القلب لا
يصلح ولا يفلح ولا يتلذذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا
يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه»^(٣).

(١) المكس: الضريبة التي يأخذها الماكس وهو العشار. انظر: النهاية في غريب الأثر،
للجزري (٣٤٩/٤).

(٢) رواه مسلم وقد سبق تخريجه ص (١٦).

(٣) فتاوى ابن تيمية (١٩٣/١٠).

وما ذكره — رحمه الله — هو مصداق قول الرسول ﷺ —
 كما جاء في صحيح مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب:
 «ذاق حلاوة الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد —
 ﷺ رسولاً»^(١).

وانظروا — عباد الله — إلى كلام ابن القيم وهو يتحدث عن
 شيخه ابن تيمية الذي سبق ذكر قوله آنفاً.

شيخ الإسلام ابن تيمية ابْتُلي كثيراً!! تعرض لكثير من المشقة
 وكثير من العناء في حياته، هُدِّد... سُجِن... طرد من بلاده...
 كثير حاسدوه وشانئوه... ومع ذلك كله: هل كان تيسساً؟ هل
 كان شقيماً؟ هل كان كثير الأحزان؟

اسمعوا إلى كلام ابن القيم عنه يقول: «كان شيخ الإسلام يقول
 في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن
 عبادتك. وقال لي مرة: المحبوس من حُبس قلبه عن ذكر ربه!!
 والمأسور من أسره هواه!!».

ولما دخل السجن سجن القلعة وصار داخل سورها نظر إلى
 السور وقرأ قول الله تعالى ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ
 الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾. ثم يقول ابن القيم: «وعلم الله
 ما رأيت أحداً أطيّب عيشاً منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش،
 وخلاف الرفاهية والنعيم. ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام
 ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً فهو مؤمن، حديث رقم (١٥٠).

والإرهاق!! وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم وأقواهم وأسرههم نفساً!! تلوح نضرة النعيم على وجهه! وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت بنا الظنون، وضافت بنا الأرض، أتيناها، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحاً وقوة و يقيناً!! فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه»^(١).

الثمرة الثالثة من ثمار التوبة

فرحة الله بتوبة عبده وأتمته

أَوَ يفرح الله؟! نعم، إن ذلك من صفاته، بل إن من صفاته أن يضحك — جل شأنه — وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — في الحديث الطويل في خبر آخر من يدخل الجنة حيث يدعو ربه ويلح عليه في الدعاء، قال — ﷺ — فيقول: «أي رب لا أكونن أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه، فإذا ضحك منه قال له: ادخل الجنة، فإذا دخلها قال الله له: تمنه، فسأل ربه وتمنى حتى إن الله ليذكره يقول: كذا وكذا، حتى انقطعت به الأمانى، قال الله: ذلك لك ومثله معه!!»^(٢).

(١) الوابل الصيب ١/٧٠.

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾

حديث رقم (٧٠٠٠)

أيها الإخوة في الله: إن الله — جل جلاله — ليفرح بتوبة عباده وهو الغني عنهم وهم الفقراء إليه!! يقول جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾^(١).

أي فرحة هذه؟ وما مقدارها؟ اسمع إلى قول رسول الله ﷺ — في حديث مشهور معروف يبين كيف تكون فرحة الله بتوبة عبده إذا تاب إليه.

جاء في صحيح البخاري ومسلم من حديث أنس — رضي الله عنه — يقول النبي ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه» فلتت منه ناقته وندت عنه فذهب يبحث عنها، صعد الجبال نزل الوديان، يبحث يميناً وشمالاً فلم ير لها أثراً، وعلى هذه الدابة طعامه وشرابه وكسأؤه!! أين هو؟! في صحراء ما بها أحد ينقذه ولا بشر يساعده!! «فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك» ينتظر ماذا؟ إنه ينتظر الموت!! إذ به يرفع رأسه «إذا هو بها قائمة عنده» وعليها طعامه وشرابه وكسأؤه!! تخيلوا معي — إخواني وأخواتي —: أي فرحة ستتملك قلب ذلك العبد حينما يكون حاله كهذه الحال؟! إنها فرحة عظيمة... إنها حياة جديدة... «فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك!! أخطأ من

(١) فاطر: ١٥-١٧.

شدة الفرح!!»^(١).

إن الفرح قد تملك قلبه، وأطاش لَبَّه حتى نسي وغلط فقلِّب،
وقال: أنت عبدي وأنا ربك!!

إن هذه الفرحة الكبرى في قلب ذلك العبد الناجي من الهلاك لا
تساوي شيئاً أما فرحة الله — جل في علاه — بتوبة عبده إذا جاءه
تائباً نادماً!!

الله أكبر!! إنه كرم الله وجوده، وعطفه وامتدانه. فلا عذر —
بعد ذلك — لأحد أن يتعد وأن يتردد عن القرب من الكريم الجواد
— جلّ في علاه —.

كيف والله يقول كما جاء في الحديث القدسي الثابت في
صحيح مسلم من حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — يقول الله
الكريم الغني عن عباده: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً،
ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته
هرولة!!»^(٢) القائل هو الله!! أتخيلت ذلك!!؟

وعند البخاري «وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى
أحبه!! فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي
يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني
لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذته. وما ترددت عن شيء أنا فاعله

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، حديث رقم (٦٣٠٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الذكر الدعاء، حديث رقم
(٢٦٨٧).

ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته!!»^(١).
 فاللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك وحب العمل الذي يقرب
 إلى حبك، واجعلنا من أحبائك وشفوة أوليائك.

الثمرة الرابعة من ثمار التوبة

الأمن من الفرع الأكبر يوم القيامة والتنعم

بالجنة والنجاة من النار

أيها الإخوة والأخوات: إن أماننا يوماً لا مفر منه، ولا محيص
 عنه. وإن أماننا موقفاً لا بد منه. إنه يوم تبدل فيه الأرض غير
 الأرض والسموات، إنه اليوم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين.
 يوم أهواله شديد، وساعاته عصبية، فليت شعري ما حالنا في ذلك
 اليوم؟! أنحن من المكرمين المنعمين، أم نحن من المهانين المبعدين؟
 فاللهم لطفك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

ما أحوجنا — أحبتي الكرام — إلى وقفة تذكير بذلك اليوم
 العصيب. فالورود عليه حتم لازم لا مناص عنه.

إنه يوم القيامة ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ
 مَّشْهُودٌ﴾. فهل نحن ممن يذكر نفسه بذلك اليوم؛ ليكون ذلك دافعاً
 له لفعل الصالحات وهجر المحرمات والموبقات؟

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم (٦٥٠٢).

دخل أمير المؤمنين المهدي إلى مجلسه فوقف الناس تبجيلاً واحتراماً إلا عالم من العلماء الربانيين وهو ابن أبي ذئب، فما وقف!! فاستشاط الخليفة غضباً وقال: «ما منعك ألا تقم حيث رأيت الناس يقومون»؟ قال: «إني لما رأيت قيامهم تذكرت يوم يقوم الناس لرب العالمين، فتركت القيام لأجل ذلك اليوم!! فقال الخليفة: والله أطرت شعر رأسي بكلامك».

دعوني معاشر الإخوة الكرام أقف وإياكم أقف وقفه تنقلنا بخيالنا على ذلك العالم الآخروي الذي شابت له رؤوس الصالحين، وأقض مضاجعهم، فدأبوا بأنفسهم، ووقفوا في ظلمات الليل باكين متضرعين إلى الله يرجون النجاة من هول ذلك اليوم!!

صورة واحدة فقط من صور ذلك اليوم العصيب، ذكرها ابن المبارك في كتاب الزهد^(١) والطبري في التفسير^(٢) وحسن إسناد الرواية ابن حجر عن ابن عباس — رضي الله عنهما — قال: «إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرض حتى تكون كالأديم وزيد في سعتها كذا وكذا وجميع الخلائق في صعيد واحد، جنَّهم وإنسهم قال: ثم تنشق السماء الأولى عن أهلها» من أهلها؟ إنهم الملائكة!! وهل فيها ملائكة؟ نعم، إن الملائكة قد امتلأت بهم السموات السبع كما جاء في الحديث الذي رواه ابن ماجه من حديث أبي ذر يقول ﷺ —: «أطت السماء — أي ثقلت — وحق لها أن تنط!! ما فيها

(١) الزهد لابن المبارك ص ٥٠٧.

(٢) تفسير الطبري ١٨٥/٣٠.

موضع أربعة أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»^(١) يقول ابن عباس: «ثم تنشق السماء الأولى عن أهلها فيتناثرون على أهل الأرض فيفزعون منهم فيقولون أفيكم ربنا؟ قال فيقولون: تعالى الله وإنه لآت!!» أجل، هذا اليوم الذي يأتي فيه الله ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وقال ابن عباس: «والذي نفسي بيده إن أهل السماء الأولى لكمثل أهل الأرض من إنسهم وجنهم بالضعف!! هل تخيلت المشهد!! قال: ثم تنشق السماء الثانية عن أهلها، فيتناثرون على أهل الأرض من الإنس والجن والملائكة فيفزعون منهم ويقولون: أفيكم ربنا؟ فيقولون: تعالى الله وإنه لآت. والذي نفسي بيده إن أهل السماء الثانية لكمثل أهل الأرض من إنسهم وجنهم وكمثل أهل السماء الأولى بالضعف!! والسماء الثالثة كذلك والرابعة والخامسة إلى السابعة!! قال: ويجيء الله - تبارك وتعالى - والأمم جثي صفوف، فينادي مناد: اليوم يوم الكرم!! ليقم الحامدون لله على كل حال. قال: فيقومون ويسرّحون إلى الجنة!! ثم يقال: أين الذين تتحافى جنوهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون؟ قال: فيقومون ثم يسرّحون إلى الجنة!! ثم يقال: أين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الأخلاق والبر والصلة، حديث رقم (٤١٩٠) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه، حديث رقم (٣٣٧٨).

فيه القلوب والأبصار؟ قال: فيقومون ثم يسرحون على الجنة. قال ثم يخرج بعد ذلك عُنُقٌ من النار يشرف على الناس!! له عينان تبصران ولسان فصيح، فيقول: إني وكَلَّتْ بثلاثة: إني وكَلَّتْ بكل جبار عنيد، قال فيلتقطهم من بين الناس كما يلتقط الطير حب السمسم، ثم يلقي بهم في غمرات جهنم. قال ثم يخرج ثانية فيقول: إني وكَلَّتْ بمن آذى الله ورسوله، فيلتقطهم من بين الناس كما يلتقط الطير حب السمسم، ثم يهوي بهم في غمرات جهنم. ثم يخرج ثالثة فيقول: إني وكَلَّتْ بأصحاب التصاوير، فيلتقطهم من بين الناس كما يلتقط الطير حب السمسم. فإذا أخذ هؤلاء وهؤلاء نشرت الصحف ووضعت الموازين ودعي الخلائق للحساب!!».

أيها الأحبة: إنه مشهد عظيم تشيب فيه رؤوس الولدان، وتضع فيه كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

فمن ينجو عندئذٍ؟! من يسلم من كربات الموقف وهول المطلع؟!!

إنهم أهل الإيمان، أولياء الله المسارعون إلى مرضاة ربه، إنهم التوابون والتوابات، المنيون والمنيات، الذي أعدوا لهذا اليوم عدته وأخذوا له أهبتة فهنئاً لهم، هنئاً لهم الأمن يوم يفزع الناس، والطمأنينة يوم يخاف الناس، والشبَع يوم يجوع الناس، والرّي يوم يعطش الناس...

إنهم في ذلك اليوم العصيب الذي يبلغ فيه الجهد من العباد مبلغاً

عظيماً، وتنزل الشمس فيه على رؤوس الخلائق، ترى هؤلاء الثلاثة من عباد الله من التائبين والتائبات يأتون ويردون إلى حوضه — ﷺ — ليشربوا من يده الشريفة شربة هنيئة لا يظمؤون بعدها أبداً!!

أجل، لقد انتهى وقت الشدة والعناء... ذهبت الهموم والغموم والأحزان... ذهب ذلك كله ليبدأ نعيم سرمدي، وحياة جديدة... يسقي محمد — ﷺ — بيده الشريفة أولئك الصالحين...

وكم وارد إليه في ذلك الموقف يطلب شربة ماء فلا يمكن من ذلك والعياذ بالله!! يقول — ﷺ —: «إني فرطكم على الحوض. من مرّ عليّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً. ليردّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يُحال بيني وبينهم!! فأقول: إنهم منّي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك!! فأقول: سحفاً سحفاً لمن غير بعدي».

أيها التائبون: أبشروا بموعود الله وجنته، أبشروا بدار زينها الله بيده، وختم عليها، فلا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!! أبشروا بالأهوار المطردة، أبشروا بالقصور الفارهة، والنعيم المقيم...

أبشروا بلقيا الأنبياء والمرسلين، وبلقيا محمد — ﷺ —؛ بل أبشروا بما هو أعظم وأجل وهو رؤية الله — تبارك وتعالى — في جنات النعيم... فاللهم لا تحرمنا من واسع فضلك.

الوقفه الثانية

عوامل تعين على ولوج باب التوبة

إن هناك عدداً من العوامل التي تعين العبد وتساعده على أن ينهض إلى رب التائبين فيكون منهم ومن ذلك:

أولاً: استشعار مراقبة الله لعبده:

إن من خير ما يعين العبد على الرجوع إلى ربه أن يعلم علم اليقين أن الله مطلع عليه، عالم بسرائره، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، كما قال الله — عز وجل —: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(١).

إنه العالم بالسرائر، كما أنه العالم بالعلانية، الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يمنع بصره أن يكون الإنسان في عقر داره، أو أن يتدثر بلحافه، أو أن يكون في جوف البحار أو فوق قمم الجبال... كل ذلك لا يمنع من رؤية الله له، فسبحانه من إله عظيم، ورب لطيف خبير...

فمن علم ذلك فليخجل من ربه وليستح منه!! كيف يجترئ على معصيته وهو يعلم أن الله يراه ﴿أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ

(١) يونس: ٦١.

يَرَى ﴿١﴾!!

يحكى أن رجلاً راود امرأة على الفاحشة، وكانت امرأة صالحة فأبت عليه ذلك. ومع مرور الأيام — وقد كانت هذه المرأة فقيرة وهذا الرجل غنياً — جاءت إليه تطلب المال فقال: لا، حتى تمكيني من نفسك!! حتى أفعل الحرام!! فقالت له: حسناً؛ لكنني أشترط عليك شرطاً، فقال: وما هو؟ قالت: أن تغلق الأبواب فلا يرانا أحد!! فقام فرحاً جداً وغلق الأبواب ثم عاد، فقال: ها قد غلقت الأبواب، قالت: أكلُ الأبواب؟ قال: نعم. قالت: بقي باب واحد لم تغلقه!! قال: أين هو؟! قالت: الباب الذي بينك وبين الله!! هل تستطيع أن تغلقه ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ فقام هذا الرجل مرتعشاً خائفاً نادماً تائباً إلى الله تعالى.

رقيب على كل الوجود مهيمٌ

على الفلك الدّوار نجماً و كوكباً

رقيب على كل النفوس وإن تُلدُ

بصمتٍ ولم تجهر بسرّ تغيّياً

رقيب تعالى مالك الملك مبصرٌ

به كل شيء ظاهراً أو محجّباً

وفي هذا الوقت، في العصر الحاضر، يُذكر أن أحد الشّبان سافر إلى إحدى البلاد المشهورة بالانحلال والبغاء، فبينما هو في

(١) العلق: ١٤.

شقته مع معشوقته وقد همَّ بمعاقرة الفاحشة معها نظرت هذه البغي
— وكانت بوذية — فوجدت على الطاولة تمثالاً صغيراً لإلهها
(بوذا) فقامت وأخذت لحافاً صغيراً وغطت إلهها!! تعجَّب هذا
الشاب وسألها: لماذا فعلت ذلك؟ فقالت: إنني أحجل وأستحي أن
أفعل هذه الفعلة أمام إلهي!!

هنا تحرك الإيمان في قلبه... وارتعدت فرائضه وتذكر ربه،
فقال: أتخجلين أن تفعلي ذلك مع إله صنعتموه بأيديكم من حجر
أصم لا يملك لكم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً!!
وأنا لا أخاف ولا أستحي من الله الذي يراني من فوق سبع
سموات!!

وإذا خلوت بريئة في ظلمة
والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها
إن الذي خلق الظلام يراني

إن الله — جل جلاله — عالم بالسرائر والخفيات، فإذا علم
العبد ذلك يقيناً كان ذلك مما يعينه على أن يهجر المعصية ويقبل
على الله — تبارك وتعالى — ويكون من التائبين.

ثانياً: مما يعين على ولوج باب التوبة:

تذكر عظمة الله وسطوته وانتقامه.

أيها المسرف على نفسه بالذنوب: أتدري من عصيت؟! أتعلم
عظمة ربك ومولاك؟!!

تأمل معي وانظر إلى آيات ربك في السماء والأرض لتتظنر
ولتعلم عظمة الخالق الذي اجترأت على معصيته.

قف معي — أخي في الله — قليلاً مع آيات من كتاب الله،
واسرح بخيالك في ملكوت الله، في سمائه، وفي أرضه، وانظر، وتأمل
إلى بدع صنعه في خلقه؛ لتوقن وتستدل بذلك على عظمته
سبحانه...

يقول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا
شَجَرَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا
وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ
حَاجِزًا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَلَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ
إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ
قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ
يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قُلُّ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

إن العاصي والمذنب حينما يعصي فإنه إنما يعصي رب
السموات العلى!!!

ليس ملكاً من ملوك الأرض، أو سيدياً من ساداتها بل هو سيد
الملوك وملك الملوك، ذو الطول شديد العقاب.

(١) النمل: ٦٠-٦٤.

تأمل معي إلى هذه السموات التي فوقك... كم بيننا وبين السماء الأولى منهن؟! إنها مسافة مهولة شاسعة!! وفوقها ست سموات لا يعلم كم بينهن ولا ضخامة خلقهن إلا الواحد الأحد.

ولك أن تجري مقارنة بين هذه السموات العظام وكرسي الرحمن — جل في علاه —!! إنه شيء لا يمكن للعقل البشري إدراكه!! ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

جاء عند البيهقي عن أبي ذر — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله — ﷺ —: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة!! وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة!!»^(١).

هذا العرش العظيم تحمله ثمانية من الملائكة فقط!! نعم ثمانية، ولكن اسمع إلى صفة واحد من هؤلاء الملائكة الثمانية:

جاء عند الطبراني بسند صحيح يقول النبي — ﷺ —: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ فِي صِفَةِ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، رَجُلًا فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَفَوْقَ قَرْنِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةٌ سَبْعُمِائَةٍ عَامًا!!»^(٢).

لا إله إلا الله!! أي مخلوق هذا؟! وأي عقل سيتصور ضخامة هذا الجسد العظيم!! ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

(١) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة حديث رقم (١٠٩).

(٢) المعجم الأوسط حديث رقم (٦٥٠٣) وانظر السلسلة الصحيحة حديث رقم

أيها الأحبة الكرام: إذا كان هذا هو وصف ملك واحد فكيف
بثمانية مجتمعين؟! وكيف سيكون عرش الله الذي تحمله هذه
المخلوقات الضخمة؟! بل كيف سيكون من استوى على
العرش؟! جلّ شأنه، لا إله إلا هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١) ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ
اللطيفُ الخبيرُ﴾^(٢).

أفيجرو ذلك العاصي على مخالفة أمر الله ذي الملكوت
والجبروت والكبرياء والعظمة؟!!

فألهم عفوك وسترِكَ ورحمتك ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣).

إن الله — جل وعلا — ليملي للظالم ويعطيه فرصة بعد أخرى؛
لكنه إن لم يرجع فإنه سبحانه توعدده بالعذاب إن في الدنيا وإن في
الآخرة ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ
كَيْدِي مَتِينٌ﴾^(٤).

جاء في المسند من حديث عقبة بن عامر — رضي الله عنه —
يقول النبي ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى
مَعْصِيَةِ مَا يَجِبُ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ!!» ثم تلا رسول الله ﷺ —
قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ

(١) الشورى: ١١.

(٢) الأنعام: ١٠٣.

(٣) الأعراف: ١٤٩.

(٤) القلم: ٤٤-٤٥.

أَخْذُهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»^(١).

كم من عاصٍ استهزأ بأوامر الله وتجرأ على حرماته فكان له مع الله موعد!! وكانت له ساعة انتقم الله — جل جلاله — منه فيها، وأراه الله قوته وبطشه...

ومن أعظم المواطن التي سينتقم فيها الله ويتخلى عن عبده وهو بأمس الحاجة إليه عند الموت...

عندما يكون العبد محتاجاً على ربه؛ فيتخلى الله عنه في هذه الساعة، وربما يعاقبه الله بعقوبة يراها الناس في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾...

أيها الإخوة والأخوات: أقرأ عليكم رسالة وصلتني من إحدى الأخوات تذكر فيها حادثة شهدتها ووقفت عليها بنفسها، فيها — والله — عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

أسوق لكم هذه القصة، وأقرأ عليكم بعضاً من هذه الرسالة:

تقول الأخت: «كانت لي إحدى قريباتي مسرفة على نفسها بالمعاصي، إهمال في الصلاة، تهاون في لبس الحجاب، هجران لكتاب الله، تعلق بسماع الغناء... وبالجملة فقد كانت مفرطة على نفسها، بعيدة عن ربها...

أصيبت فجأة بصداع شديد في رأسها فارقت بعده الحياة وهي

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم (١٧٣٤٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم (٤١٣).

تسبُّ أمها وتلعنها!! وتصرخ وتستغيث!! ولكن هيهات هيهات...» وأقول صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾^(١).

ثم ماذا حدث؟ لقد حدث أمر مروع!! تقول الفتاة: «فلما ماتت هذه المرأة انقلبت بشرة جسدها إلى اللون الأسود!! وجهها ويديها وسائر جسدها بشكل مخيف مروع، وانتفخت أعضاؤها، وأخذ الدم يسيل من فمها وأنفها وكأنه صنبور ماء متدفق!!

حاولوا إيقاف هذا الدم حين تغسيلها ولكنه لم يتوقف؛ بل زاد — والعياذ بالله — فكفنوها ودمائها تسيل حتى صار كفنها الأبيض أحمر من كثرة الدماء!!

مع أن المرأة لم تصب بحادث ولا بجروح؛ ولكن هكذا أراد الله — تبارك وتعالى...»

ثم تسأل هذه الفتاة عن هذه الحالة البئسة، ماذا تعني: أهى دليل على سوء الخاتمة؟ وتريد جواباً ليهدأ قلقها ويرقاً دمعها... وتذكر من حالتها النفسية بسبب هذا الحدث الشيء الكثير...

أقول: إننا لا نجزم لأحد بجنة ولا نار، إلا من شهد الله له بذلك أو رسوله ﷺ؛ ولكن — والله — إن هذا المصير لأمر

(١) الأنعام: ٩٤.

مروع مخيف لا يتمناه أحد. وشتان بين من يموت ساجداً لله أو قارئاً للقرآن وبين من يموت على مثل هذه الحالة. والناس شهود الله في أرضه كما قال رسول الله ﷺ — فنسأل الله حسن الخاتمة وحسن العاقبة.

ثالثاً: مما يتعين على التوبة:

التأمل في نتائج المعصية وعقوبتها.

إن العاصي حين يرتكب فاحشة أو يقترف خطيئة فإن عاقبة فعله حسرة وهموم في الدنيا، وخزي وندامة يوم القيامة...

ولو حصل لذلك العاصي لذة في أثناء معاقبته للذنب إلا أنها لذة ممزوجة بكدر!! ثم إنها لذة سرعان ما تنقضي وتنتهي وتبقى الآثام مسجلة مكتوبة عليه في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

تفنى اللذائذ ممن نال صفوها

من الحرام ويبقى الإثم والعار

تبقى عواقب سوء من مغبتها

لا خير في لذة من بعدها ولا نار

إن صرعى الشهوات وعباد الهوى هم أبأس الناس حالاً ولو زعموا غير ذلك، وهم والله في بحر الحزن والنكد غارقون، ولو أظهروا للناس عكس ما يظنون...

يقول الحسن البصري — رحمه الله — واصفاً أهل المعاصي

الذين يبدو عليهم الترف والنعيم ويظهرون للناس أنهم سعداء يقول فيهم: «إنهم وإن هملجت بهم البراذين، وطققت بهم البغال إلا أن ذل المعصية في قلوبهم ووجوههم!! أبى الله إلا أن يذل من عصاه!!»^(١).

فعلام يردي المرء نفسه في وحل المعصية وهذه عاقبتها في الدنيا؟! وأما في الآخرة فالأمر فوق ما يخاطر على البال!!

إنما النار وبئس القرار ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَلظَى * نَزَّاعَةَ لِّلشَّوَى * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾^(٢) ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾^(٣). ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٤) (لم؟) ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٥).

وشتان بين حياتين: حياة التائبين وحياة العاصين المذنبين ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا

(١) فتاوى ابن تيمية ٢١/٢٥٨.

(٢) المعارج: ١٥-١٨.

(٣) فاطر: ٣٦-٣٧.

(٤) الحج: ٢١-٢٣.

(٥) آل عمران: ١٨٢.

وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴿١﴾.

رابعاً: (مما يعين على التوبة):

الجلوس إلى التائبين وقراءة سيرهم وقصصهم.

إن الجلوس إلى التائبين والتأمل في مشوار توبتهم ورجوعهم إلى الله هو مما يعين على سلوك مسلكهم؛ ذلك أنهم قوم منكسرة قلوبهم، قرييون من ربهم، يتذكرون حياة اللهو والمعصية فيوجلون ويخافون، وتقشعر أجسادهم خوفاً من عواقبها، ثم يتأملون في توبتهم فيخافون ألا تقبل منهم!! فقلوبهم كقلوب الطير في خوف ووجل وانكسار ورقّة لله — تبارك وتعالى...

إنها قلوب التائبين المنيبين للرحيم الكريم، فكان لزاماً على كل من أراد التوبة أن يجلس إلى هؤلاء التائبين ليستفيد منهم ويأخذ العبرة والعظة، وإن لم يكن كذلك فلا أقل من أن يقرأ سيرهم وقصصهم.

يقول عمر بن الخطاب — رضي الله عنه —: «أكثرُوا الجلوس إلى التائبين فإنهم أرق أفئدة».

وسأقف وإياكم في هذه العجالة مع قصتين، لشاب تائب وفتاة تائبة ممن ركبوا قافلة التائبين وأنابوا لله رب العالمين...

ولعل في هاتين القصتين ما يكون دافعاً إلى التوبة إلى الله — جل

(١) الجاثية: ٢١.

جلاله — والرجوع إليه...

أما قصة الشاب فقد حكاها ابن قدامة في كتاب التوايين يقول — رحمه الله —: «عن رجاء بن ميسور المجاشعي قال: كنا في مجلس صالح المريّ وهو يتكلم، فقال لفتى بين يديه وعنده الناس: اقرأ يا فتى، فقرأ الفتى قول الله ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، قال صالح المريّ يفسر هذه الآية: كيف يكون للظالمين حميم أو شفيع والمطالب له رب العالمين؟! إنك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصي يساقون في السلاسل والأنكال إلى الجحيم حفاة عراة، مسودة وجوههم، مزرقة عيونهم، ذائبة أجسادهم، ينادون: يا ويلنا، يا ثبورنا ماذا حل بنا؟! أين يذهب بنا؟! ماذا يراد منا؟! والملائكة تسوقهم بمقامع النيران، فمرة يجرون على وجوههم ويسحبون عليها منكبين، ومرة يقادون إليها مقرنين من بين باكٍ دماً بعد انقطاع الدموع، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت!! إنك — والله — لو رأيتهم على ذلك لرأيت منظرًا لا يقوم له بصرك، ولا يثبت له قلبك، ولا تستقر لفضاعة هوله على قرار قدمك، قال: ثم نحب صالحٌ وبكى قائلاً: يا سوء منظراه، يا سوء منقلباه. وبكى وبكى الناس معه...

وكان من بين الحاضرين فتى مسرف على نفسه معروف بغفلته، قال هذا الفتى بعد أن سمع ما سمع: أكلّ هذا في يوم القيامة يا أبا بشر؟ قال: نعم — والله — يا ابن أخي وما هو أكثر، قد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع أصواتهم فما يبقى منهم إلا

كهينة الأنين من المدنف!! فصاح هذا الفتى الذي كان غافلاً وقال:
 إنا لله، واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة، وأسفاه على تفريطي في
 طاعتك يا سيده، وأسفاه على تضييعي لعمرى في أيام الدنيا. ثم
 بكى واستقبل القبلة وقال: اللهم إني أستقبلك في يومي هذا بتوبة لا
 يخالطها رياء لغيرك. اللهم فاقبلني على ما كان في، واعفُ عما تقدم
 من فعلي، وأقلني في عثرتي، وارحمي ومن حضر، وتفضل علينا
 بجودك وكرمك، يا أرحم الراحمين: لك ألقيتُ معاهد الآثام من
 عنقي، وإليك أنبتُ بجميع حوارحي صادقاً لذلك قلبي، فالويل لي
 إن لم تقبلني!!

ثم غلبَ فسقط مغشياً عليه!! فحُمِل من بين القوم صريعاً!!
 فمكث صالح المري وإخوته يعودنه أياماً، ثم مات — رحمه الله!!
 فحضر جنازته خلقٌ كثير ييكون عليه ويدعون له...

وكان صالح المري كثيراً ما يذكره في مجلسه فيقول: بأبي قتيل
 القرآن!! بأبي قتيل المواعظ والأحزان!!

قال: فرآه رجل في منامه بعد موته فقال: ما صنعت؟. قال:
 عمّنتي بركة مجلس صالح المري، فدخلت في سعة رحمة الله التي
 وسعت كل شيء!!^(١).

نعم أيها الأخوة والأخوات: كيف لا تكون رحمة الله لمن أقبل
 إلا إليه وأناب واستغفر من ذنبه وتاب!!؟

(١) كتاب التوايين لابن قدامة، ص(٢٦١).

فحيّهنَّ أيها الحبيب: بادر قبل زمن الفوات، واطرق باب
الكريم الجواد الرؤوف الرحيم...

أما النموذج الثاني لمن أحياه الله بعد موت، وأنقذه بعد غرق
في بحار المعصية والخطيئة فهي قصة لفتاة في هذا العصر. تاب الله
عليها بسبب معلمتها، تروي قصتها بنفسها مع شيء من التصرف
اليسير فتقول: «لا أدري بأي كلمات سوف أكتب؟ أم بأي
عبارات الذكرى الماضية التي أتمنى أنهما لم تكن؟

لقد كان إقبالي على سماع الأغاني كبيراً، حتى إنني لا أنام ولا
أستيقظ إلا على أصوات الغناء!!

أما المسلسلات والأفلام فلا تسل عنها في أيام العطل لا أفرغ
من مشاهدتها إلا عند الفجر!! في وقت ينزل فيه رب السماء
فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه سؤاله؟ وأنا
ساهرة على أفلام الضياع!!

وأما زينتي وهيئتي: فكهيئة الغافلات أمثالي في هذا السن!!
قصة غربية، ملابس ضيقة وقصيرة، أظافر طويلة، تهاون بالحجاب
إلى غير ذلك من ألوان المعصية والتقصير.

تقول: في الصف الثاني الثانوي دخلت علينا إحدى المعلمات،
وكانت معلمة فاضلة شديني إليها حسن خلقها، وإكثارها من ذكر
الفوائد، وربطها المادة بالدين.

حملتني أقدامي إليها مرة، لا أدري ما الذي ساقني إليها؟! لكنها
كانت البداية...

جلست إليها مرة أو مرتين، فلما رأته مني تقبلاً واستجابة نصحتني بالابتعاد عن سماع الغناء ومشاهدة المسلسلات قلت لها: لا أستطيع. قالت: من أجلي، قلت: حسناً من أجلك، ثم صمت قليلاً وقلت بعد ذلك: لا ليس من أجلك بل لله — إن شاء الله... وكانت قد علمت مني حبّ التحدي فقالت: ليكن تحدّي بينك وبين الشيطان، فلننظر لمن تكون الغلبة، فكانت آخر حلقة في ذلك اليوم. فلا تسل عن حالي بعد ذلك (تقصد ما واجهها من صراع ومجاهدة)، لا تسل عن حالي وأنا أسمع من بعيد أصوات الممثلين في المسلسلات: أتتقدم وأشاهد المسلسل؟ إذاً سيغلبني الشيطان...

ومن تلك اللحظة تركت سماع الغناء ومشاهدة المسلسلات، لكن بعد شهر تقريباً عدت إلى سماع الغناء خاصة، واستطاع الشيطان رغم ضعف كيده أن يغلبني لضعف إيماني بالله!!

تقول: وفي السنة الثالثة دخلت علينا معلمة أخرى كنت لا أطيق حصتها، ولا أطيق رؤية هذه المعلمة بسبب درجة متدنية حصلت عليها عندها، ولم أكن قد اعتدت الحصول على مثل هذه الدرجة، لكن عسى أن تكرر هو شيئاً وهو خير لكم.

وبعد أن سافت حواراً بينها وبين هذه المعلمة التي كانت صالحة وتقية، تقول بعد ذلك صافحتني المعلمة ووضعت في يدي مصحفاً صغيراً، وقبضت على يدي وقالت: لا أقول إنه هدية؛ بل هي أمانة فإن استطعت حملها وإلا فأعيديها إلي!! فوقع في نفسي حديثها!! لكن لم أستشعر ثقل الأمانة إلا بعد أن قابلت إحدى الأخوات الصالحات فأخبرتها بما حدث وبما قالت لي المعلمة قالت: فتغير وجه تلك الأخت

الصالحة وقالت لي: أتعلمين ما هي الأمانة؟! أتعلمين ما هي مسؤولية هذا الكتاب؟! أتعلمين كلام من هذا؟! أوامر من هذه؟!

عندها استشعرت ثقل الأمانة التي حملتها، فكان القرآن العظيم أكبر هدية أهديت لي، فانهمكت في قراءته وهدرت وبكل قوة وإصرار الغناء والمسلسلات... إلا أن هناك نقصاً في؛ حيث إن هيئتي لم تتغير كثيراً، قصّة غريبة وملابس ضيقة ونحو ذلك مما يعد نقصاً في سمات الفتاة الملتزمة. ومع طول المجاهدة وكثرة النصائح تحسنت حالي والحمد لله، إلا أن الحدث الذي غير مجرى حياتي، وكان له أبلغ الأثر في نفسي هو ما حدث في يوم من الأيام... حيث ذهبت مع إحدى الأخوات إلى مغسلة الأموات... فإذا بالمغسلة تُغسلُ شابة تقارب الثالثة والعشرين من عمرها، وكانت في المستوى الثالث من الجامعة، تقول: ولا أستطيع وصف ما رأيت!! تُقلّب يميناً وشمالاً لتُغسل وتكفن وهي باردة كالثلج!! وأمها حولها وأختها وأقاربها.

أتراها تقوم وتنظر إليهم آخر نظرة وتعانقهم وتودعهم؟! أم تراها توصيهم آخر وصية؟! كلا، لا حراك!!

وإذا بأمها تقبلها على خدها وجبينها وهي تبكي بصمت وتقول: اللهم ارحمها، اللهم وسع مدخلها، اللهم اجعل قبرها روضة من رياض الجنة، ثم تردف الأم كلامها وتقول: قد سامحتك يا ابنتي، قد سامحتك يا ابنتي!!

ثم يسدل الستار على وجهها بالكفن...

تقول هذه التائبة: ما أصعبه من منظر... وما أبلغها من موعظة... لحظات وتوضع في اللحد، ويُهال عليها التراب وتُسأل عن كل ثانية من حياتها... فوالله مهما كتبتُ من عبارات ما استطعت أن أحيط بذلك المشهد!! لقد غير ذلك المشهد أموراً كثيرة بداخلي، وزهدني في هذه الدنيا...

وإني لأتوجه إلى كل معلمة بل إلى كل داعية أياً كان مركزها: ألا تتهاون في إسداء النصح وتقديم الكلمة الطيبة، حتى وإن أُقفلت في وجهها جميع الأبواب حسبها أن باب الله مفتوح...

كما أتوجه إلى كل أخت غافلة عن ذكر الله، منغمسة في ملذات الدنيا وشهواتها أن عودي أُحيّة فوالله إن السعادة كل السعادة في طاعة الله.

وإلى كل من رأت في قلبها قسوة، أو ما استطاعت ترك ذنب ما، أن تذهب إلى مغسلة الموتى وتراهم وهم يغسلون ويكفّنون!! والله إنهما من أعظم العظات، وكفى بالمرء واعظاً، أسأل الله لي ولكنَّ حسن الخاتمة...»

الوقفه الثالثة

أيها المذنب لم الشكوى وبين يديك العلاج!!؟

يشتكى كثير من العصاة من هموم ألزمتهم، وأحزان لم تبرحهم، ومصائب لم تفارقهم... يندبون حظهم وتعاسة حالهم... والحقيقة أنهم هم سبب ذلك!!

وإن تعجب فعجبٌ حالهم!! بين أيديهم العلاج الناجح
لأدوائهم ومع ذلك فقد أعرضوا!! فلم الشكوى إذن؟!
لم التشكي والتسخط وحبل النجاة ممدود تجاهكم؟!!

تأملوا إخواني وأخواتي هذه الكلمات الجميلة للإمام ابن القيم
— رحمه الله — وهو يخاطب ذلك المذنب الذي يكثر الشكوى
والتألم وبين يديه باب النجاة، يقول — رحمه الله —: «ويستغيث
مع ذلك (يعني المذنب): العطش العطش!! وقد وقف في طريق الماء،
ومنع وصوله إليه!! فهو حجاب قلبه عن سرِّ غيبه، وهو الغيم المانع
لإشراق شمس الهدى على القلب. فتباً له من ظالم في صورة مظلوم،
شاكياً والجناية منه!! قد جد في الإعراض وهو ينادي: طردوني،
أبعدوني!! يأخذ الشفيق — ﷺ — بحجزته عن النار، وهو يجاذبه
ثوبه ويغلبه ويقتحمها!! ويستغيث: ما حيلتي وقد قدموني إلى
الحفرة وقذفوني فيها!! والله كم صاح به الصائح: الحذر الحذر!!
إياك إياك!! وكم أراه مصارع المقتحمين، وهو يأبى إلا الاقتحام!!
يا ويله ظهيراً للشيطان على ربه، خصماً لله مع نفسه، جبري
المعاصي قدرتي الطاعات، عاجز الرأي، مضياً لفرصته، قاعداً عن
مصالحه، معاتباً لأقدار ربه. يحتج على ربه بما لا يقبله هو من ولده
وامراته!! هذا مع تواتر إحسان الله إليك (أيها المذنب) على مدى
الأنفاس: أزاح علك، ومكّنك من التزود إلى جنته، وبعث إليك
الدليل، وأعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعرفك الخير والشر
والنافع والضار، وأرسل إليك رسوله وأنزل إليك كتابه. أمرك
بسؤاله ليعطيك فلم تسأله!! بل أعطاك أجلّ العطايا بلا سؤال فلم

تقبل!! تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك!! وتتظلم ممن لا يظلمك إلى من يظلمك وتدعو من يعاديك ويظلمك!! وإن أنعم عليك بالصحة والعافية والمال والجاه استعنت بنعمه على معصيته!! دعاك إلى بابه فما وقفت عليه ولا طرقته!! ثم فتحه لك فما ولجته!! ومع هذا لم يؤيسك من رحمته بل قال: متى جئني قبلتك، إن أتيتني ليلاً قبلتك، وإن أتيتني نهاراً قبلتك، وإن تقربت مني شبراً تقربت منك ذراعاً، وإن تقربت مني ذراعاً تقربت منك باعاً، وإن مشيت إلي هرولت إليك. ولو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً أتيتك بقراها مغفرة!! ولو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك!! فمن أعظم مني جوداً وكرماً!! عبادي يبارزونني بالعظام وأنا أكلؤهم على فرشهم!! إني والجن والأنس في نبأ عظيم: أخلق ويعبد غيري؟! وأرزق ويشكر سواي؟! خيرني إلى العباد نازل وشهرهم إلي صاعد!! أحب إليهم بنعمي وأنا غني عنهم، ويبتغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي!! من أقبل إلي تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد، ومن أراد رضاي أردت له ما يريد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد. أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي. إن تابوا إلي فأنا حبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا إلي فأنا طيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب. من آثرني على سواي آثرته على سواه. الحسنة عندي بعشر

أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة عندي
بواحدة، فإن ندم عليها واستغفرتني غفرتها له، أشكر القليل من
العمل، وأغفر الكثير من الزلل، رحمتي سبقت غضبي، وحلمي
سبق مؤاخذتي، وعفوي سبق عقوبتي، أنا أرحم بعبادي من
الوالدة بولدها»^(١).

أرأيتم — عباد الله — إلى الفضل الزاخر من أرحم الراحمين!!
سبحانه وبحمده، ما أعظم كرمه وجوده، وما أوسع فضله وعطاءه.
فلا حجة — والله — بعد ذلك لمذنب ولا لمشتكّي.

الوقفه الرابعة

مزالتق ومحاذير في باب التوبة

إن هناك — أيها الإخوة والأخوات — جملة من المحاذير والمزالتق
حول موضوع التوبة يحسن بنا أن نقف عندها لنحذر منها ونفتر
من سلوكها، فكم زلت بها من قدم، وكم هوى بها من إنسان.
ومن تلك المزالتق والمحاذير:

أولاً: التسوييف وتأجيل التوبة:

لا يزال كثير من المذنبين يؤخر رجلاً ويقدم أخرى في شأن
التوبة، فمنهم من يؤخرها إلى ما بعد الزواج!! ومنهم من يضع في
باله سناً افتراضياً إذا وصل إليه فإنه سيتوب!! ومنهم من يقول إذا

(١) تهذيب مدارج السالكين ١/١٩٥.

وصلت إلى مرحلة الشيخوخة والهرم تبت إلى الله!! لكن كثيراً من أولئك لم يمهلهم هادم اللذات وقاصم الجبابرة والسادات. فقد هجم عليهم وخابت آمالهم، وعاجلهم فحسروا الدنيا والآخرة ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

إنه — يا عبد الله — ليس للمرء إلا روح واحدة، ليس له إلا فرصة واحدة، فإن ضاعت هذه الفرصة فإنه لا فرصة بعدها!!

إن التوبة واجبة على الفور يحرم التسويف فيها والتأجيل. يقول ابن القيم — رحمه الله —: «المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها. فمتى أخرها عصى الله بتأخيرها!! فإذا تاب من الذنب بقيت عليه توبة أخرى وهي توبته من تأخير التوبة»^(١).

وقال ابن الجوزي في كتابه (بحر الدموع): «يا بطال! إلى كم تؤخر التوبة وما أنت في التأخير معذور؟! إلى متى يقال عنك مفتون مغرور؟! يا مسكين: قد انقضت أشهر الخير وأنت تعد الشهور!! أترى مقبول أنت أم مطرود؟! أترى مواصل أنت أم مهدور؟! أترى تركب الثُجْبَ غداً أم أنت على وجهك مجرور؟! أترى من أهل الجحيم أنت أم من أرباب القصور؟!»^(٢).

أيها المسوف في التوبة: البدار البدار قبل أن يحتتم لك بخاتمة

سوء!!

(١) تهذيب مدارج السالكين ١/٢٤٧.

(٢) بحر الدموع لابن الجوزي ص ٥٧.

لا تؤخر التوبة حتى يأتي الأجل وتحين ساعة الصفر!! فعندها هيهات هيهات أن تقبل منك التوبة كما قال — جل جلاله —: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١).

ثانياً: ترك التوبة اتكالاً على سعة — رحمة الله:

كثير من أهل الذنوب والتقصير إذا حدث بحتمية الاستعجال في التوبة والإقلاع عن التفريط في جنب الله بادرك بأحاديث وآيات الرجاء!! فقال: (الله غفور رحيم) (رحمته وسعت كل شيء) (رحمته سبقت غضبه) (الله غني عنا وعن طاعتنا) ونحو ذلك من عبارات هي بلا شك حق؛ لكنه قد استند عليها من أجل أن يسوغ لنفسه فعل المعصية وترك الطاعة!!.

إن المرء العاقل الذي يحسن الظن بالله ويرجو رحمته ينبغي عليه أن يحسن العمل أيضاً. وإلا فحُسن الظن مع اتباع الهوى عجز، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعانِد.

قال الحسن البصري — رحمه الله —: «إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بلا توبة يقول أحدهم: لأني أحسن

(١) النساء: ١٧-١٨.

الظن بربي!! وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل»^(١).

ويقول ابن القيم — رحمه الله —: «كثيرٌ من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، فضيعوا أمره ونهيه ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يُرد بأسه عن القوم المجرمين. قال معروف: رجأؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق. وقيل للحسن البصري — رحمه الله —: نراك طويل البكاء؟! قال (وهو الزاهد العابد التقى): أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي!! وسأله رجل: يا أبا سعيد، كيف نضنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد تطير قلوبنا؟! قال: والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خيراً لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحق بالمخاوف».

أيها الإخوة والأخوات: يجب علينا ألا نتساهل بالمعصية أبداً؛ فإن الحساب دقيق؛ وإن الديان — جل جلاله — لا يموت. وإذا استصغرت المعصية فتذكرت عظمة من عصيته!!

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي رافع قال: «مرّ النبي ﷺ — بالبقيع فقال: «أفُّ لك» فظننته يريدني، فقال: «لا، ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعياً إلى آل فلان فغلّ ثمره — يعني سرق كساءً — فدرّع الآن مثلها من النار!!»^(٢). وهذا الحديث في ثبوته نظر إلا أنه قد جاء في قصة شبيهة في صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمر — رضي الله عنه.

(١) فيض القدير ٦٧/٥.

(٢) مسند الإمام أحمد، حديث رقم (٢٧٢٣٦)، وضعف إسناده الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

وجاء أيضاً في صحيح مسلم عن أبي أمامة — رضي الله عنه قال النبي — ﷺ: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة» فقال له رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإن قضيباً من أراك!!» أي وإن كان عوداً من سواك^(١).

فالحذر الحذر من الاتكال على سعة رحمة الله وترك التوبة والرتوع في معصية، فإن الحساب حاصل لا محالة، والمرجع حتماً إلى الله رب السماوات والأرضين.

ثالثاً: ترك التوبة خشية الرجوع في الذنب:

من الناس من يرغب في التوبة وتأكل فؤاده نيران المعصية، لكن الذي يمنعه من التوبة هو خشية الرجوع إلى المعصية مرة أخرى. وربما أنه سبق له أن تاب من ذنب لكنه عاد إليه، فجاء إليه الشيطان ونفث في روعه وقال: أنت كاذب في توبتك، هذه ليست توبة، كيف تتوب ثم تعود؟! هذا استخفاف بالله!! ثم تراه بعد ذلك يستسلم لتلك النزغات الخبيثة وذلك المكر الكُبار!!

والجواب على مثل هذه الشبهة أن يقال: بل تبّ واصدق في توبتك، واندم على زلتك، واعزم على عدم الرجوع إليها. فإن عدتَ فعدتَ إلى التوبة ثانية وثالثة ورابعة... وإن رأى الله منك الصدق والمجاهدة فإنه سيعينك ويوفقك.

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة النار، حديث رقم (٣٥١).

جاء رجل إلى أحد السلف فقال له: الرجل يعمل الذنب ماذا يصنع؟ قال: يتوب. قال: ثم يعمله أخرى فماذا يصنع؟ قال: يتوب. قال: ثم يعمله ثالثة ماذا يصنع؟ قال: يتوب. قال: إلى متى؟ قال: إلى أن يكون الشيطان هو المدحور!!.

إن من حقق شروط التوبة وأقلع عن المعصية ثم عاد إليها بعد ذلك فإن توبته الأولى مقبولة صحيحة؛ لأنه كان عازماً على ألا يعود. وقد جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — قال — ﷺ —: «أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال — تبارك وتعالى —: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب؟! ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال — تبارك وتعالى —: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب؟! ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال — تبارك وتعالى —: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب؟ اعمل ما شئت فقد غفرت لك!!»^(١).

قال النووي في شرحه لصحيح مسلم في قوله — عز وجل — للذي تكرر ذنبه (اعمل ما شئت فقد غفرت لك): «معناه ما دمت تذنّب ثم تتوب فقد غفرت لك»^(٢).

رابعاً: تعاضم الذنب واليأس من رحمة الله:

كم أقعد اليأس من مذنب عن أن يطرق باب الكريم!! تعاضم

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه، حديث رقم (٦٩١٩).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٧٥/١٧).

ذنبه ونسي أن رحمة الله أعظم وأجل. فكلما هم بالتوبة تذكر ذنوبه وموبقاته فقال: أتى لي بمغفرة الله وقد فعلت وفعلت؟! وما يدريكم عن حالي وذنوبي التي اقترفتها وعن سيناتي التي اجترحتها؟! فأقول: صدقت نحن لا ندري عنها، لكن حسبنا أن الله يدري بها ومع ذلك لم يعاجلك بالعقوبة!! ينتظر منك أن تطرق باب جوده، يمهلك شفقة عليك ورحمة بك...

روى ابن ماجة في كتاب (الزهد) وصححه الألباني من حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال: «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم!!»^(١).

وجاء في المسند من الحديث صفوان — رضي الله عنه — قال — ﷺ —: «إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة، مسيرته سبعون سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من نحوه»^(٢).

وبالجملة: فإن الله لا يتعاضمه ذنب أياً كان الذنب، وهو القائل — جل شأنه —: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٣).

فيا من ألم بذنوب وحشي ألا يغفر الله له: اقرأ قوله — تعالى:

(١) رواه ابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، حديث رقم (٤٢٤٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم (٩٠٣).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، حديث رقم (١٨٠٩٣) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة، حديث رقم (٣٢٨٩).
(٣) الزمر: ٥٣.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١).

أورد ابن القيم رحمه الله في (مدارج السالكين) قصة عن بعض الصالحين: إنه رأى في بعض الطرق باباً قد انفتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه من خلفه تطرده حتى أغلقت الباب دونه!! فذهب الصبي غير بعيد ثم وقف مفكراً... فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولا من يأويه غير والدته!! فرجع مكسور القلب حزيناً فوجد الباب مرتجاً (أي مقفلاً) فتوسّده ووضع خده على عتبة الباب ونام!! فخرجت أمه فلما رآته على تلك الحال، لم تملك أن رمت بنفسها عليه والتزمته تقبله وتبكي وتقول: يا ولدي أين تذهب عني؟! ومن يأويك سواي؟! ألم أقل لك: لا تخالفني ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك وإرادة الخير لك؟! ثم أخذته ودخلت...

علّق ابن القيم على هذه القصة بكلام جميل فقال: «تأمل قولها (لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبلت عليه من الرحمة والشفقة) وتأمل قول النبي ﷺ —: «لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها» وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟!»^(٢).

الله أكبر يا عباد الله!! ما أعظم رحمة الله!! ما أعظم ما ادخره سبحانه من الرحمات للتائبين والتائبات!!

(١) النساء: ١١٠.

(٢) تهذيب مدارج السالكين ١/٢١٢.

جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — يقول النبي — ﷺ —: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل إلى الأرض جزءاً واحداً. فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه!!»^(١).

وجاء في بعض الآثار: إن إبليس يوم القيامة يرفع رأسه يريد أن تدركه رحمة الله؛ لما يرى من تنزل الرحمات على عباد الله!!
فيا أيها المذنب — وكلنا كذلك —: هذا هو الباب مفتوح بين يديك فعجل بالولوج، وانطرح بين يدي ربك...

انطرح عند عتبة باب مولاك...

مرغ جهتك تذلاً لسيدك...

فرّ منه إليه، فما من عاصم من الله إلا إليه... وقل بلسان العبد المعترف الأواب:

أيا من ليس لي منه مجيرُ

بعفوك من عذابك أستجيرُ

أنا العبد المقرّ بكل ذنب

وأنت السيد المولى الغفورُ

فإن عذبتني فبسوء فعلي

وإن تغفر فأنت به جديرُ

(١) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، حديث رقم (٢٧٥٢).

أفرُّ إليك منك وأين إلا
 يفرُّ إليك منك المستجيرُ
 لم يبق — والله يا عباد الله — من حلاوة العيش — كما قال
 بعض السلف — إلا أن نمرَّغ وجوهنا في التراب ساجدين له
 سبحانه...

وإن ذاقت عليك الأرض بما رحبت واستوحشت من ذنوبك،
 وغلقت دونك الأبواب فاعلم أن باب الله مفتوح لا يغلق. وارفع
 شكواك إليه لا إلى سواه، وقم في ظلمات الليل، وبث همومك
 وأحزانك إلى ربك؛ فإنه العليم بالسرائر وما تكنه الضمائر...

طرقت باب الرجا والناس قد رقدوا
 وبت أشكو إلى مولاي ما أجدُ
 فقلت يا ألمي في كل نائلة
 ومن عليه لكشف الضرّ اعتمدُ
 أشكو إليك أموراً أنت تعلمها
 مالي على حملها صبرٌ ولا جلدُ
 وقد مددتُ يدي بالذلّ معترفاً
 إليك يا خير من مدّت إليه يدُ

اللهم يا سامع الدعوات، ويا مقيل العثرات، ويا غافر الزلات:
 اجعلنا من عبادك التائبين، واغفر لنا ذنوبنا أجمعين...

اللهم إنا نشكو إليك ضعف إيماننا، وقلة صبرنا، وجرأتنا على
 معصيتك!! فاللهم إنا نتضرع إليك، ونبتهل إليك أن تلتطف بنا،

وأن لا تعاجلنا بعذابك...

اللهم لا تفضحنا يوم العرض الأكبر عليك. وكما سترت
ذنوبنا عن الناس فاغفرها لنا يوم لقياك...

اللهم أحسن لنا الختام، واغفر لنا جميع الآثام، واجمعنا في دار
النعيم والإكرام، ووالدينا وأزواجنا وذرياتنا والمسلمين ﴿مَعَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ
وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
عَلِيمًا﴿^(١). وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه
أجمعين،،.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.